الفصل الثالث

العقل المغلق

1. بروفايل العقل المغلق.
2. القرآن وغريزة القطيع.
3. الرؤية الأحادية للإسلام.
4. دوجماطيقية الخطاب الديني وصراع الإخوة الأعداء.
5. الأقدام الفخارية للتجمد الديني (1).
6. الأقدام الفخارية للتجمد الديني (2).
7. اللاعقلانية ولعبة الموت.
8. الكراهية وظاهرة العنف.
9. قابيل وهابيل.. يعودان من جديد.
10. إعادة تصدير الإرهاب.

الفصل الثالث

العقل المغلق

1 - بروفايل: العقل المغلق

العقل المغلق مثل الحجرة المظلمة التي لا نوافذ لها .. إنها لا ترى النور، ولا يمكن لمن بداخلها أن يرى شيئًا سواء في الداخل أو الخارج .. ولا يتنفس إلا هواءً قديمًا، أما أكسجين الحياة فلا يمكن أن يصل إليه!

إن صاحب العقل المغلق أشبه بالطفل في رحم الأم، كل عالمه هو هذا الرحم، وهو غير متصل مع العالم الخارجي، ولا يمكن لأحد أن يحاوره، **ولا يمكن أن يخرج من هذا العالم المغلق بإرادته، إنه يظن أن الخروج من هذا العالم مهلكة، وهو يصرخ بأعلى صوته ويتلوى ويرفس عند إخراجه قسرًا!**

ولذا لا يستطيع صاحب العقل المغلق أن يتجاوز ذاته أو عالمه الخاص. ومن المستحيل أن يرى أي شيء خارج عقله، ولا يستطيع أن يتجاوز أفكاره المظلمة ولا يمكنه أن يرى غير أفكاره هو، ويعدها يقينية قطعية لا تقبل المناقشة، بل يصل به الحد إلى الاعتقاد بأنها ذات طابع إلهي .. وأن الله تعالى معه! بل إنه ممثل الله على الأرض. والله ليس رب العالمين، بل ربه هو فقط.

وعندما يدخل في صراع مع أحد، فالبديل الوحيد عنده هو إعلان الحرب المقدسة؛ فهو وحده على طريق الحق والخير، وغيره كافر، أو عَلماني، أو ضال، أو شرير أو فاسد.

وهكذا يتحول معه العالم إلى: أبيض وأسود، ملائكة وشياطين، دار السلام ودار الحرب.

وهذه الحالة من الانغلاق العقلي التي يعيشها تجعله منفصلًا تمامًا عن الواقع؛ أسير أوهام يعتبرها مقدسة ومنزهة!

وليس بوسع أحد أن يفرض على العقل المغلق - الذي ينطلق من موقف عقائدي مغلق - قواعدَ وقوانين من خارج مفاهيمه وحقائقه هو؛ لأنه هو الذي يحددها ويختارها ويلتزم بها بمقدار ما تخدم قضيته، وبما تتناسب مع الظروف التي يكافح فيها.

ومن هنا فإن قاعدة «الضرورات تبيح المحظورات» مستخدمة عنده على أوسع نطاق لتحقيق مصالحه الخاصة وأهوائه، والضرورة عنده ليست هي الخط الفاصل بين الحياة والموت مثلما قال الفقهاء، بل هي الخط الفاصل بين مصالحه الشخصية والمبادئ الأخلاقية العامة، وعندما تتعارض مصالحه مع الدين أو مع الأخلاق أو مع المصالح العامة، يقوم على الفور بإعادة تفسيرها أو بالقفز عليها؛ فإذا كانت الخمر محرمة في الشريعة، فهي مباحة عنده، يسمح ببيعها وأخذ الضرائب عليها .. وينسى أن الخمر مباحة فقط عند عدم وجود الماء والشروع في الموت عطشًا، وهذه هي الضرورة في الشريعة.. أما عنده هو فالضرورة تتسع لمجرد تحصيل الضرائب!

وإذا كانت إسرائيل عدوًّا لدودًا يطالب بمحوها من على وجه الأرض

من أجل المزايدة السياسية، فإن **الضرورة (المنبعجة)** التي يؤمن بها من أجل تحقيق مصالحه تدفعه في ظروف أخرى لاعتبارها صديقًا حميمًا!.

لاحظ معي أن العقل المغلق ينتقل من الموقف لنقيضه تبعًا لأوهامه التي تتخذ نقطة ارتكاز مخادعة، ونقطة الارتكاز ليست هي الدين أو الوطن أو المصالح العامة، إنها فقط أهواؤه ومصالحه الشخصية الموقتة. وهي نقطة مخادعة لأنه يوهم نفسه و يوهم الآخرين في كل مرة أنها نقطة ارتكاز الدين أو الوطن، بينما هي في الحقيقة نقطة ارتكاز مصالحه الشخصية!

وحتى لا أطيل على القارئ، ألخص له مجموعة السمات التي يتسم بها صاحب **العقل المغلق**، وهي:

1. الاستئثار بالحقيقة، أي يزعم أنه وحده الذي يعرف الحقيقة.
2. عدم الرغبة في فتح قنوات للحوار مع الآخر.
3. إذا اضطر لفتح الحوار لا يقدم أي تنازلات.
4. لا يدخل في عهد إلا إذا كان ضعيفًا ومضطرًّا، وعندما يقوى يقوم بنقضه على الفور.
5. التقية هي سلاحه الذهبي في خداع الآخرين.
6. إذا حدَّث كذب، و إذا اؤتمن خان، و إذا خاصم فجر.
7. لا يبحث عن الأرضية المشتركة مع التيارات الأخرى.
8. ينغلق على نظام قيم معين بصورة جامدة.

9. ثقافة التسلط، حيث الرغبة في التحكم التام في الآخرين وفرض أفكاره ورغباته وطريقة حياته عليهم.

10. نفي الآخر، أي يعتبر المخالفين له على الباطل المطلق أو كفرة.

ومن غير الخفي أن **العقل المغلق ليس فقط** طابعًا يميز بعض التيارات الدينية الأصولية، بل هو طابع بعض الحركات الشيوعية والعلمانية أيضًا التي تعتقد أنها تملك الحقيقة المطلقة.

ويظهر **العقل المغلق** بوصفه سمة أيضًا وبوضوح في بعض **المواقف الغربية** التي تتخذ موقفًا معاديًا من الحضارات الأخرى وتزعم أن نموذجها الحضاري هو النموذج الأمثل بشكل مطلق! ولذا فهي تعمل جاهدة على تعميم هذا النموذج من خلال العولمة وترسيخ مفهوم صراع الحضارات، التي تنظر فيه إلى حضارتها كممثلة للمدنية أما الحضارات الأخرى فهي بدائية.

وهنا فالقوى الغربية لا تعمل إلا لتحقيق مصالحها الخاصة، بل تعمل على تدمير الآخر، مرة بالحرب المباشرة، ومرة بإستراتيجية «فرق تسد»، ومرة بذرع بذور **الفتنة الأهلية بين أبناء الوطن الواحد**، وفي كل هذه الإستراتيجات ترفع شعار الديمقراطية، والحوار، وحقوق الإنسان!.

لقد كان الغرب حاضرًا في كل مرة: الحروب الصليبية على الشرق، فلسطين الحديثة، أفغانستان، باكستان، العراق، تونس، ليبيا، سوريا، **والوجهة هذه المرة هي مصر**. لكن بإستراتيجية جديدة هي «التحالف مع الأصوليات»!

2- القرآن وغريزة القطيع!

يرفض القرآن بحسم «غريزة القطيع» التي تجعل المجموع ينساقون وراء قادتهم بلا تفكير أو تروٍّ أو مراجعة! كما يستنكر القرآن بوضوح ما ينشأ عن هذه الغريزة، مثل منهج السمع والطاعة، ويسخر من التسليم بأقوال القادة أو الآباء دون الاستناد إلى براهين عقلية، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: 170]. وفي الوقت نفسه يرفض القرآن موقف الذين لا يستخدمون عقولهم ويشبههم بالبهائم.

ومن هنا نبذ القرآن الطريقة المتعصبة في التفكير التي تقوم على اليقين الساذج الذي نلْتقي به عند المتطرف، فالمتطرف ذو عقل مغلق ومتعصب لآرائه إلى أبعد الحدود، لا يقبل أن يناقش آراءه ومعتقداته أحد، يعتقد في ذكائه المفرط وقدرته الخارقة على معالجة الأمور. كما يعتقد في سلطة الآباء أو العلماء أو غيرهم من أصحاب النفوذ الديني أو الفكري. وهذه هي طريقة الذين يقولون «إن الحق يعرف بالرجال!» الذين حذر منهم الإمام علي، أي الذين يعتبرون القول حقًّا لمجرد أن فُلانًا أو عِلّانًا قاله، وهؤلاء هم الذين يسيرون على منهج السمع والطاعة، لا برهان لهم ولا رأي؛ فالذين يملكون الحقيقة هم أسيادهم فقط!

ولذلك هم منفصلون تمامًا عن الواقع كما يقول علماء النفس.

والسمع والطاعة أمر مستهجن وضد مبادئ العقل المنطقي وضد البداهة؛ لأن المعتقدات ينبغي أن تؤسس على براهين من الواقع وليس من الحجج

النظرية الجوفاء التي تقوم على المصالح الخاصة للجماعة بصرف النظر عن مصالح الوطن.

ولذا حذرنا الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون من الذين يتبعون زعماءَهم مثلما يَتْبع القطيعُ الراعيَ! وأطلق بيكون على آراء أمثال هولاء اسم «أوهام المسرح»، وهي الأوهام التي تنشأ عن الاعتقاد في صحة كل ما يقوله قادة الجماعات أو الآباء أو الشيوخ أو غيرهم من أصحاب النفوذ؛ حيث يعتقد بعض الناس أن كلامهم كله صحيح لمجرد أنه صدر عن فقيه كبير من الفقهاء أو قائد جماعة دينية أو سياسية من ذوي الأسماء الكبيرة. ويرى بيكون أنه لا بد من النظر إلى أقوال هؤلاء ومذاهبهم على أنها تشبه المسرحيات!

والأصل الأول لكل تعصب هو غريزة القطيع التي ليس لها بوصلة سوى اليقين المطلق الذي تتسم به بعض معتقداتهم اعتمادًا على التسليم الكامل للقادة.

وفي ظني يكمن المنشأ الفلسفي لغريزة القطيع في طبيعة منهج التفكير، فالعقل المتعصب المتطرف عقل مغلق على نفسه، ومن ثم فهو مظلم، مثل الحجرة المغلقة التي لا نوافذ لها .. إنها لا ترى النور، ولا يمكن لمن بداخلها أن يرى شيئًا سواء في الداخل أو الخارج .. إنه لا يستطيع أن يتجاوز ذاته. ومن هنا فإن صاحب العقل المغلق من المستحيل أن يرى أي شيء خارج عقله، لا يستطيع أن يتجاوز أفكاره المظلمة ولا يمكنه أن يرى غير أفكاره هو، ويعتبرها يقينية قطعية لا تقبل المناقشة، ومؤكدة بشكل نهائي! ويرجع هذا بدوره إلى حالة الانغلاق العقلي التي يعيشها، ومن ثم الطابع التعصبي التطرفي الذي يميز منهجية التفكير التي يستخدمها.

ولـذا تجد المتعصب شـخصًا غير عقـلاني، يعتقد اعتقـادًا جازمًا أنه على صـواب تام والآخرين على خطأ تـام، إما لأنه لا يسـتخدم عقله مطلقًا، أو لأنه يسـتخدمه بطريقة خاطئة. فليسـت «اللاعقلانية» هي عدم استخدام العقل فقط، ولكنها أيضًا استخدامه بطريقة خاطئة.

إن التعصـب حيلـة فكريـة مخادعـة؛ لأن المتعصبين يتحدثـون كما لو كان موقفهـم قائمًا على براهـين محكمة ونهائية! أي إنهم يخدعون غيرهم، بل ويخدعون أنفسـهم دون أن يشـعروا، بأنهم أصحـاب براهين محكمة مع أن براهينهم مليئة بجوانب الخلل.

ومـا هذا إلا لأن التعصب لا يسـتطيع أن يخـرج وراء ذاته فيرى عيوب تفكيرها.

ويؤكد القرآن على إمكانية المعرفة اليقينية ووجود معايير لماهية الحقيقة، لكـن من جهة أخـرى يرفض اليقـين المطلق الـذي يزعم بعضهـم امتلاكه دون براهـين محكمة؛ حيث ينتقد الأسـاليب الزائفة غير البرهانية، ويدعو للمعرفة التجريبيـة المبنية على النظر في الكون والآفاق والنفس، وغير ذلك من الأساليب التي توصل للمعرفة المضبوطة أو العلم الدقيق بالعالم الخارجي أو النص المكتوب.

والعلم اليقيني يحصل عليه الإنسان بوسائل متعددة: الواقع، أو التجريب، أو الاسـتدلال العلمي، أو القـراءة الفاحصة، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونـس: 101]، ﴿ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ [العلق: 4 - 5].

ودعـا القـرآن الكريم إلى اسـتخدام البرهان للوصول للمعرفـة اليقينية:

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: 111]؛ فحجية العقل المنطقي سند للتمييز بين اليقين والوهم.

كما أن العلم بالدين والواقع المعيش وعدم الانفصال عنه، شرط لاستخدام العقل، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43]، والعالمون هم الذين يملكون أدوات البحث العلمي في الواقع الخارجي أو النص المكتوب ويعرفون طرق البرهان والاستدلال، وما هي الطريقة المنضبطة التي يتوصل بها العقل إلى المعارف، فالعقل المنضبط بمعايير البرهنة والاستدلال العلمي له دور لا يُنكر في عملية المعرفة بالواقع أو الكتاب.

لكل هذا لا بد من نَبْذِ الجمود الديني النظري الذي تتسم به التيارات المتعصبة التي تعارض تجديد أمر الدين أو تطور العلوم الإنسانية والطبيعية.

وهنا تكمن مأساة التيارات المتطرفة التي تعتقد أنها وحدها تملك الحقيقة المطلقة. ومن هنا أيضًا ينبع الاستئثار بالسلطة وإقصاء الآخرين عند الوصول إلى الحكم.

وعندما يضيع الحكم يؤدي وهم امتلاك الحقيقة المطلقة إلى الإرهاب!

3- الرؤية الأحادية للإسلام

مع مرور أكثر من 14 قرنًا على ظهور الإسلام، لا تزال الفجوة واسعة بين الإسلام والمسلمين، فالإسلام (قرآنًا ورسولًا) يقدم نموذجًا إنسانيًّا عالميًّا للدين الذي يلائم الطبيعة الإنسانية، ويعترف بالتنوع الكوني والإنساني، ويعتبر

التعددية سنة إلهية، ويميز بوضوح بين البشري والإلهي، وهو في الأساس جاء رحمة للعالمين وليس لبعض المسلمين فقط، ومن مقاصده الكبرى تحقيق العدالة الاجتماعية والحفاظ على الأوطان ومصالح الناس .. كل الناس: حياتهم، عقولهم، دينهم، أموالهم، أعراضهم. وهذه الأمور الخمسة تسمى بالضروريات الخمس، وبمقاصد الشريعة، وهي الأمور التي تظهر من جميع أحكامه.

وبعض أو أكثر المسلمين منذ لحظة الانحدار الحضاري وحتى الآن يفسرون هذه المقاصد على أنها خاصة بهم أو بفصيلهم، أما باقي التيارات فليس لها إلا التكفير الديني أو السياسي وكلها في النار.

ولهذا أسباب كثيرة، أكتفي منها هنا بـ «النظرة إلى الإسلام من زاوية واحدة وضيقة»، هي زاوية القراءة الضيقة والحرفية لنصوص الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ، والأخذ ببعض الكِتاب وترك البعض الآخر، غافلين عن روح الإسلام وأدلته الكلية.

مثل هؤلاء مثل العميان الذين دخلوا غرفة مظلمة فيها «فيل عملاق»، ووضع بعضهم أيديهم على ذيله، وظنوا بل اعتقدوا أن «الفيل كله» عبارة عن «ذيل»، بينما فريق آخر وضعوا أيديهم على «رجل» الفيل وتصوروا الفيل كأنه عمود طويل مستدير، أما الذين وضعوا أيديهم على «ظهر» الفيل فتصوروا أنه هضبة عالية، والذين وضعوا أيديهم على «أنيابه» ظنوا أنه كائن شرس فتاك! وهكذا الحال مع سائر الأجزاء... ثم دخل الجميع في جدال مميت حول ماهية الفيل، وأخذ كل فريق يصف الفيل «كله» بمواصفات هذا «الجزء» الذي يمسك به والذي يعلمه علم اليقين!

وعمى بعض المسلمين في عصرنا ليس عمى عين و إنما عمى ثقافة، وعمى الزاوية الواحدة التي ينظرون منها، وهي زاوية الموروثات الاجتماعية وزاوية المصدر الواحد للمعرفة؛ فهم يخلطون بين موروثاتهم الاجتماعية والتصور الإسلامي النقي والشامل. ولذا تجدهم يعتقدون أنهم يحتكرون الفهم الصحيح والأوحد للإسلام، و يبدون تعصبهم مع المختلفين معهم.

مثل البدو الذين يُضْفون على الإسلام الطابع البدوي، فلا يرون فيه إلا سلطة الرجال وعزل المرأة، ودين الخشونة، والمعاداة للفن والحضارة.

أما العلمانيون فهو عندهم علاقة فقط بين العبد وربه، ولا شأن له بصلاح الحياة العامة ولا دخل له بأي شأن من شؤونها.

والجماعات الماسونية والباطنية والسرية تضفي طابعها الخاص عليه؛ فتراه دين العمل السري، والتقية، والعمل من وراء ستار، والرغبة في السيطرة والهيمنة.

أما الجهاديون، فالإسلام عندهم هو دين الفتك، والعنف، والقوة، وتكفير الآخر. وهو دار السلام في مقابل دار الحرب.

والصوفيون يرون فيه دين الزهد والتقشف والذكر والاعتزال عن الكفاح في الحياة.

أما الكتلة الصامتة فالإسلام عندها هو دين المناسبات: رمضان، العيد، رجب، شعبان، المولد النبوي، الحج.

وبعض الفنانين يتصورون الله تعالى رب قلوب فقط وليس رب أعمال أيضًا، والمهم القلب، و«طالما قلبك سليم تقدر تعمل أي حاجة»!

وعلى عكسهم - لكنه يقع أيضًا في الخطأ نفسه - بعض المتشددين الذين يفهمون تعاليم الله على أنها تعاليم شكلية حرفية تتعلق بالظواهر أكثر مما تتعلق بالبواطن؛ ويحصرون أنفسهم في جانب ضيق: المظهر والملابس والشكليات، نصف الجسد الأسفل، الجنس، الزوجات، الطقوس .. ومن ثم حوّلوها من تعاليم للروح والجسد معًا إلى تعاليم للجسد فقط!

أما الفاسدون والنصابون من كل فصيل، فهم يخلطون بين العبادة الحقة والعبادة المزيفة، فلا يزال الكثيرون يقيمون علاقتهم مع الله من خلال الطقوس فقط، وليس من خلال الالتزام والمسؤولية، فسبيل الخلاص عندهم في الالتزام بالعبادات فقط، وليس في ممارسة العمل البناء في تنمية العالم، وهم يخلطون بين العبادة الحقة في الدين والتي تقيم علاقة فعالة بين الإنسان والله فتمده بدافع شخصي متجدد لممارسة دوره في إعادة بناء العالم وتنميته، وبين العبادة المزيفة التي يمارسها المراءون، أو التي يمارسها الذين يخدعون أنفسهم ويظنون أنهم يسترضون الله تعالى بأداء بعض العبادات ثم يسعون في الأرض فسادًا؛ فيرتشون ويغشون ويكتمون الشهادة ويشيع بينهم عادة النفاق والإهمال والغدر وعدم الالتزام بالوعود!

كما يخلط كثير من المسلمين بين معتقدهم الديني ومواقفهم السياسية ذات الطابع الإنساني المتغير. إن الإسلام يشتمل على أصول الحكم السياسي العادل. هذا شيء لا شك فيه، لكن الكارثة تكمن في أن يعتبر أي شخص أن مواقفه السياسية المتغيرة والمرتبطة بالمصالح والطبقة والجماعة التي ينتمي إليها هي تعبير عن الإسلام الخالد نفسه!

أما بعض رجال الدين الذين يتخذون الإسلام مهنة وليس رسالة؛ فقد

حولـوا الدين الأصلي إلى مؤسسـات ذات سـلطة ومرجعيـة تحتكر الحقيقة وتركز على الشـعائر والمناسـبات أكثر ممـا تركز على نقاء الضمير واتسـاق القول والفعل، وتركز على الشكل والحرف أكثر مما تركز على الجوهر والعقل والإنسان، وتبرر للحكام قراراتهم ومصالحم؛ فالدين عندهم «سبوبة»!

وهكـذا نجـد أن كل هـؤلاء لا تـزال تسـيطر عليهم الرؤيـة الأحادية للإسـلام، بينما رؤية الإسـلام أوسـع من ذلك بكثـير: الكون، الإنسـانية، الحضارة، التاريخ، العدالة الاجتماعية، الإنصاف، الخير والرحمة للعالمين.

لـكل هـذا يجب عـدم الخلط بين الإسـلام الذي هـو دين في حـد ذاته، والإسـلام كـما يفهمه ويمارسـه بعض المسـلمين في ضوء ثقافتهـم المحدودة وعقائدهم الجامدة ومصالحهم الخاصة.

وينتج من ذلك حتمية عدم اتهام الإسـلام - دينًا - بأية صفة سلبية نتيجة الفهـم القاصر الذي تقع فيه كل هذه الطوائف الممسـكة بـ «ذيل» الفيل أو «رجله» أو «ظهره» أو «أنيابه»، فكل شائنة تشين هؤلاء، هم وحدهم الذين يتحملونها، مثل تحمل التلاميذ الفاشـلين لمسـؤولية عـدم فهمهم للمقررات الدراسـية (الجيدة طبعًا) التي يدرسـونها، ومثل الأرض البور التي لا تنتج أي ثمار على الرغم من أن «الماء النقي» يرويها ليل نهار!

4- دوجماطيقية الخطاب الديني وصراع الإخوة الأعداء

تكمن إحدى جوانب مأسـاتنا الفكرية المعـاصرة، في أننا جميعًا أصبحنا نعاني من مرض التطرف الذي أصاب الجميع سـواء كانوا متطرفين في التدين أو متطرفـين في العلمانية، وأصبح أبناء الأمة الواحـدة يعانون حالة انفصام

الإخوة الأعـداء! وإزاء هذا الوضع العدائي البغيض والذي نشـأ من موقفين كليهما «متطرف»، تجد المسـلمين المعاصرين يشـبهون جمهـور كرة القدم المتعصـب الذي لا يرى غـير فريقه. إن ظاهرة «الألتراس» ليسـت سـوى تعبير رياضي فج عما نعانيه في الفكر والثقافة والإعلام؛ فالعصبية السـائدة في كرة القدم هي نفسها عصبية الأيديولوجية والجماعة والقطيع الفكري في الخطاب الديني والخطاب الدنيوي.

وفي حالة كهـذه لا يمكن تكوين خطاب ديني جديد ولا خطاب دنيوي جديد دون تبين المنشأ العقلي للتطرف عامة سواء أكان تطرفًا دينيًّا أم دنيويًّا. وفي تصـوري إن المَنشَـأ العقـلي للتطرف يكمـن في طبيعة «منهـج التفكير اللاعقلاني» الذي يميز العقول المغلقة. وتستلزم عملية التجديد أولًا «فضح» هـذا المنهج، ووضع الناس أمام حقيقة أنفسـهم وحقيقـة عقولهم؛ فالعقول مريضـة، ولذا لا يمكن أن تحل تناقضات الواقـع ولا حتى تناقضات النفس، ولا يمكن أن تنتج علما ولا فكرًا ولا حلولًا لإشكاليات العصر.

إن نقد منهج التفكير اللاعقلاني الذي يحكم تفكير النخبة وعموم الناس معًا، بات ضرورة مطلقة قبل الشروع في التجديد، وهو بمثابة تشخيص مرض عضال، وهو أيضًا بمثابة العلاج؛ فالوعي بالداء جزء من العلاج.

ومن وجهة نظري المتواضعة أن المرض الأكبر الذي يعاني منه منهجنا في التفكير هو «الدوجماطيقية»!

لكن ما الدوجماطيقية؟

ببسـاطة هي التعصـب المطلق لكل ما تؤمـن به الجماعة، إنهـا الاعتقاد

بامتلاك الحقيقة كلها. وهي تعريب لكلمة Dogmatism، ولها ترجمات عديدة، مثل: يقينية، وثوقية، قطعية، توكيدية. وأي متطرف في الدين أو الفكر أو السياسة هو متعصب أو دوجماطيقي بلغة الفلسفة. والدوجماطيقي هو شخص غير عقلاني، يعتقد اعتقادًا جازمًا أنه على صواب تام والآخرين على خطأ تام، إما لأنه لا يستخدم عقله مطلقًا، أو لأنه يستخدمه بطريقة خاطئة. فليست «اللاعقلانية» هي عدم استخدام العقل فقط، ولكنها أيضًا استخدامه بطريقة خاطئة!.

وليست الدوجماطيقية تيارًا فلسفيًّا أو دينيًّا محددًا، وإنما هي - في أكثر معانيها انتشارًا - صفة تتصف بها كل فرقة أو مذهب أو جماعة تزعم امتلاك الحقيقة المطلقة بشكل شامل، ولا تقر بأنها قد تحتمل شيئًا من الخطأ أو النقص، وتقطع بأن ما تحوزه من معارف ومعتقدات لا يقبل النقاش ولا التعديل ولا التطوير، حتى وإن تغيرت الظروف التاريخية، فهي مقدسة ومنزهة عن أي نقد، على الرغم من أن هذه المعتقدات والآراء غير مبرهن عليها ببراهين قاطعة من العقل أو الواقع أو الوحي يقيني الثبوت ويقيني الدلالة، وعلى الرغم من عدم التمهيد لهذه المعتقدات بفحص نقدي تحليلي للأسس التي تقوم عليها، ودون بحث في حدود وقدرات العقل المعرفية، فضلًا عن عدم تمحيص الطرق التي توصل إلى المعرفة الصحيحة. وأية فرقة أو جماعة أو تيار أو فلسفة تعتقد أنها تملك الحقيقة المطلقة، فهي متعصبة أو دوجماطيقية؛ لأنها تتعصب تعصبًا مطلقًا لكل ما تؤمن به، ولا تتسامح مع آراء أو معتقدات الآخرين!

ولم يعد لمعظم الفلسفات الدوجماطيقية من وجود إلا في بطون الكتب

والدراسات، وبعضها له جمعيات علمية بحثية في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، ولهذه الجمعيات نشاط نظري ملحوظ لا سيما على شبكة الإنترنت. غير أن الأصوليات الدوجماطيقية، سواء الدينية أو السياسية أو الثقافية، لا تزال موجودة نظريًّا وعمليًّا وسياسيًّا في معظم بلدان العالم إن لم يكن كلها بدرجة أو بأخرى. ومن غير الخفي أن الدوجماطيقية موقف وسمة يتحلى بها كثير من المذاهب الأيديولوجية والفلسفية والدينية الموجودة على الساحة في كل بلدان العالم وليس العالم الإسلامي فقط، وهي ليست صفة للتطرف الديني فقط، بل أيضًا صفة للتطرف العلماني.

هذا ما نجده في التطرف الديني والتطرف العلماني على حد سواء، فموقفهما ينطوي على تعصب؛ لأن كلًّا منهما ينحاز إلى آرائه بشكل مطلق، وينفي الآخر، ولا يقبل مناقشة أفكاره. وهذا ما يمكن أن نلمسه في موقفهما من الدين. ومع أهمية الدين القصوى، فإن الخطاب الديني يبدو في وضع يتميز بالخلط والالتباس، نتيجة صراع الإخوة الأعداء؛ حيث يجد المسلم نفسه بين تيارين متعصبين أصبح لهما السيادة في الجدل الجاري على مختلف الساحات، أعني تيار التطرف العلماني وتيار التطرف الديني؛ إذ يتصرف التيار الأول وكأن الله غير موجود! بينما يتصرف التيار الثاني وكأن الإنسان غير موجود! بمعنى أنه ينزع من الإنسان كل فاعلياته ومسئولياته ومواهبه. التيار الأول جعل إلهه المال والرفاهية والتحرر، والتيار الثاني يفهم تعاليم الله على أنها تعاليم شكلية حرفية تتعلق بالعقاب والقهر والتسلط ولا تتعلق بالضمير والروح والعمل والتنمية.

وكلا التيارين - على الرغم من تعارضهما - يشترك دون أن يعيَ ذلك في

مجموعـة من الصفات التي تجعـل الصراع بينهما صراعًا عقيـمًا، وأهم صفة مشتركة بينهما هي «وهم امتلاك الحقيقة المطلقة»، فكلاهما يزعم أنه وحده الـذي يعرف الحقيقـة ويمتلك مفاتيـح الخلاص. ولذلـك فكلاهما متعصب، وكلاهما دوجماطيقي، وكلاهما يجرنا إلى حافة الهاوية!

5- الأقدام الفخارية للتجمد الديني (1)

إن التجمـد الديني الذي تعيشـه أمتنا يرجع لأسـباب كثـيرة لا تعدو أن تكـون أقدامًا فخارية لقصـور من الرمال، ولا تخرج عن كونها الأسـاطير المؤسسـة للأوهام التي نحياها. ولعل أهم هذه الأقدام الفخارية هي التقليد المطلق لـلآراء والمذاهب والجماعـات؛ فالتقليد عقبة كـبرى أمام التجديد الديني؛ وهو السـبب في بناء قصور من الوهم التي تعيق النظر والتواصل مع الواقـع الحي، والمقلد لا يرى الفكر الديني إلا بناءً حديديًّا غير قابل للتطور والتحديث، وغير قابل لإعادة الفهم وفق ظروف الزمان والمكان وما يستجد من أحوال أو يتبدل من متغيرات!

ولا ينسحب هذا النقد فقط على العلوم الإنسانية والمذاهب الفقهية التي نشـأت لفهم الدين، وإنما ينسـحب أيضًا على المذاهب اللادينية التي تفشل فشـلًا ذريعًا عندما تتجمد ويصبح التقليد منهجها، والتفسير الحرفي المطلق وسـيلتها، متجاهلة طبيعة التفكير العلمي وسـنن الواقع. وعلى سـبيل المثال فـإن الماركسـيين التقليديين يزعمـون أن تعاليم ماركس وإنجلـز ولينين إنما هـي مبادئ وقواعد مطلقة تصلح لكل زمان ومكان! وقد اتهم الماركسـيون الحرفيون المقلدون الفيلسـوف الفرنسي روجيه جارودي عندما كان لا يزال

ماركسيًّا، بالتحريفية لما حاول تجديد الماركسية واتهموه بالمروق عنها (يمكن الرجوع لكتابنا عن جارودي «نصف قرن من البحث عن الحقيقة»)؛ فالمقلدون حتى لو كانوا «لادينيين» يحملون عقولًا تشبه في طريقة عملها عقول المقلدين في الدين! ولا يزال مقلدو الماركسية يعيشون في أوهامهم على الرغم من أن التجارب أثبتت فشل الماركسية الأصولية الذريع حتى في مواءمة ظروف العصر الذي نشأت فيه: النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين. وذلك في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية، بل وفي بعض البلدان العربية. فما بالنا بالفشل الذي ستمنى به لو طُبقت في عصور أخرى دون أن يطرأ عليها تطوير جذري!

إن الرجال الذين تربوا على رؤية «الإسلام الأول» للعالم، وما انبثق عنها من نظريات في المعرفة والبحث عن الحقيقة، أدركوا أن الجهد البشري «نسبي» في إدراك الحقائق، وأنه لا أحد يملك الحقيقة كلها. وأدركوا أن الحق يُعرف بذاته لا بالتقليد، قال ابن عبد البر: «إنه لا خلاف بين أئمة أهل الأمصار في فساد التقليد». وذكر ابن القيم عن أبي حنيفة وأبي يوسف أنهما قالا: «لا يحل لأحد أن يقول بقولنا حتى يعلم من أين قلناه»، وهذا تصريح بمنع التقليد؛ لأن من طلب الدليل فهو مجتهد يأخذ بالحجة وليس بالقول وحده، أما المقلد فهو الذي يقبل القول ولا يطالب بحجة.

إن القرآن ضد فكرة التقليد بحجة التقليد في حد ذاتها دون برهان حاسم، فالحق مقياس نفسه، وفق معايير الواقع والعقل البرهاني والوحي المبين، واليقين المستند إلى التقليد مرفوض وضد نصوص القرآن الذي يرفض بوضوح تقليد السابقين دون الاستناد إلى براهين محكمة تحمل الحق في ذاتها،

فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان:20 - 21]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 170 - 171]. وانتقد القرآن الكريم بحسم الذين: ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: 74].

إن المرجعية النهائية في الدين ليست لأية سلطة سوى كلمة الله التي اكتملت باكتمال نزول القرآن الكريم، وسنة النبي التي جاءت بوحي إلهي، وثبتت نسبتها إليه، دون الضعيف والمرسل والمنقطع والموقوف والموضوع... إلخ.

والمصيبة كلها نشأت عند ظهور الصراع السياسي على السلطة ونشأة الخوارج. لكن الصحابة والأئمة على موقف واحد في نبذ طريقة المقلدين والخوارج في كل العصور الذين يؤكدون معتقداتهم وآراءَهم عن طريق دعمها بسلطة أمراء الجماعات أو الآباء أو الأجداد أو المفكرين أو العلماء أو غيرهم من أصحاب السلطة، وهذا ما أسماه الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون «أوهام المسرح»، وهي الأوهام التي تنشأ عن الاعتقاد في صحة كل ما يقوله القدماء؛ حيث يعتقد بعض الناس أن القديم كله صحيح لمجرد أنه صدر عن فقيه كبير من الفقهاء أو فيلسوف كبير من ذوي الأسماء الكبيرة في تاريخ الإنسانية. والناس يخطئون عندما يتلقون آراء القدماء دون تمحيص ونقد. ويرى بيكون أنه لا بد من النظر إلى نظريات القدماء

ومذاهبهم على أنها تشبه المسرحيات؛ فكلاهما مخترع ولا علاقة له بالواقع الفعلي (The Philosophical Works of Francis Bacon).

هكذا تلتقي كلمة العقل مع كلمة الوحي مؤكدة أن الماضي «ليس بذاته وفي ذاته حجة»، وكل المقلدين يخطئون عندما يقفون عند حجة الماضي المتهافتة، ومنطقهم الأعوج ينطق ببطلانه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: 23 - 25].

6- الأقدام الفخارية للتجمد الديني (2)

فشلت كل محاولات مرتدي ثوب العقلانية في عالمنا العربي في الوصول إلى الجماهير و إيجاد صحوة ثقافية، وأغلب العقلانيين العرب أنفسهم ما هم إلا متعصبون أيضًا؛ لأن عقلانيتهم غير محكومة بمعايير العقل النقدي، ومن ثَمَّ شاركوا في حالة «التجمد الفكري» التي نحياها؛ فهم يقفون على الأقدام الفخارية نفسها التي يقف عليها «التجمد الديني»، مثل: التقليد، والتعصب، والعقل المغلق، والاستئثار بالحقيقة، ونفي الآخر، وثقافة التسلط، وثقافة التآمر، والانغلاق على نظام قيم معين بصورة جامدة، وثقافة التبرير، وعدم الرغبة في فتح قنوات للحوار والبحث عن أرضية مشتركة راسخة تقوم على الحقائق البديهية التي يلتقي عندها جميع الإخوة الأعداء.

إن عقلانيتهم عقلانية تقليد وليست عقلانية نقدية، لأنها إما تقليد حرفي للمعتزلة المغرقة في النظريات العقائدية بلا طائل، أو تقليد سطحي للعقلانية الغربية في القرنين السابع عشر والثامن عشر التي انتهى زمانها.

إن العقلانية السائدة اليوم ليست عقلانية حقيقية، إنها عقلانية مصطنعة تحلق خارج التاريخ، ومنعزلة عن الوعي بالواقع المعيش. إن عقلانيتهم تزعم امتلاك الحقيقة كلها وتنفي الآخر؛ ولذا تقع في فخ التعصب لقدرة العقل المطلقة مثل التيارات النقلية الحرفية المتعصبة للنصوص دون فهم أو تمييز!

ولا تقع المسؤولية عن حالة التجمد الديني على رجال الدين فقط، بل تقع أيضًا على المفكرين والأكاديميين والمثقفين والإعلاميين؛ فالجميع شركاء في المسؤولية عن حالة العقل العربي التي دخلت في حالة «تجمد» منذ قرون ولم نستطع الخروج منها حتى الآن؛ بسبب الفشل في إسقاط الأقدام الفخارية للتجمد الفكري العام، والتجمد الديني خاصة. وبالتالي فإن النقد يجب ألا يوجه فقط للتيارات الدينية المتعصبة، وإنما يوجه بالمثل لإخوانهم الأعداء من المفرطين في العقلانية والمتعصبين لأفكارهم إلى أبعد مدى، مع أن الأصل في العقلانية هو العقل التواصلي والانفتاح والحوار والنسبية.

إن التعصب - أكرر - ليس وقفًا على بعض التيارات الدينية التي تعاند العقل النقدي المنضبط بحدود الواقع، وإنما يطال خصومهم من المتعصبين تعصبًا كليًّا لقدرة العقل المطلقة؛ فالعقلانيون تيارات متنوعة، وليسوا كتلةً واحدةً أو فريقًا واحدًا، بل إن منهم المتعصب الذي يبني قصورًا من الرمال عندما ينساق وراء العقل وحده بعيدًا عن الواقع الحي، مؤمنًا إيمانًا مطلقًا بقدرة العقل دون شرط أو قيد، وهنا يقع المفرط في العقلانية في شباك الدوجماطيقية التي أشرنا إليها مرارًا؛ حيث «يذهب إلى إثبات قيمة العقل وقدرته على المعرفة وإمكان الوصول إلى اليقين، وإذا كان مذهب الشك يوصي بالامتناع عن إثبات الحقائق أو نفيها، فإن العقلانية الدوجماطيقية ترى أن العلم الإنساني

لا يقـف عند حد، وتؤكد قدرة العقل على المعرفة والتوصل إلى اليقين دون أية مسـاندة من التجربة. وقد سـارت هذه النزعة في فلسـفة بعض العقليين إبّان القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، ونحا نحوها التجريبيون الذين أكـدوا إمكان المعرفة عـن طريق التجربـة» (مجمع اللغـة العربية، المعجم الفلسفي). ولذا بحسب وجهة نظرنا فإن الملحدين والمنكرين للعقائد الدينية متعصبـون كذلـك؛ لأن موقفهم العقلي غير منضبط ويسـتند إلى يقين مطلق وثقـة كاملة في صحة موقفهم وتصوراتهـم وفي جزمهم بعدم وجود الله، على الرغم من أنهم لم يحيطوا علمًا بالكون ولا بأنفسهم! يا لها من سذاجة!

ونجد هذا التعصب الدوجماطيقي نفسه - لكن باعتباره طرفًا نقيضًا - عند بعـض التيـارات في علم الكلام وبعض علماء أصـول الدين؛ حيث يؤكدون عـلى قدرة العقل التي يزعمون مطلقيتهـا، ويعطونها الحق في تناول الصفات الإلهيـة، دون أيـة شروط أو حدود! بينما في المقابـل يبالغ آخرون في إنكار العقـل ويؤكدون هيمنـة المعنى الحرفي للنص المرجعـي دون محاولة للتفاعل معه أو تفعيله في إطار التنزيه. ومن ثَمَّ يفهمون آيات الصفات فهمًا تشـبيهيًّا أو تجسـيميًّا اسـتنادًا للفهم الحرفي الظاهري لبعض النصـوص، كما يفهمون آيـات الأحكام بالمثـل فهمًا حرفيًّـا دون مراعاة الواقع المتغـير وقواعد علم أصول الفقه. إن إنـكار العقل نهائيًّا دوجماطيقية، وفي المقابل إن إثبات قدرة العقل المطلقة دوجماطيقية واضحة أيضًا. إنها العملة نفسـها لكن من وجهها الآخر!.

وللتعصب العقلي أشـكال ساذجة، مثل التعصب الساذج الذي نجده عند بعض مشـجعي كرة القدم، بل مثـل التعصب الذي نجـده منتشرًا في عصرنا

عند رجل الشارع، فرجل الشارع يفتي في كل شيء وهو متعصب لتصوراته تعصبًا أعمى؛ إنه يملك الإحاطة بكل شيء: السياسة والعلم والفن والدين والاقتصاد! فهو يتصور نفسه ذكيًّا جدًّا وعالمًا جدًّا وقائدًا لا نظير له!

إن تعصب رجل الشارع مثله مثل تعصب النخبة لا يختلف عنه إلا في المظهر وطريقة التعبير. وهذ التعصب قرين التقليد الأعمى دون برهان، وكلاهما من الأقدام الفخارية التي تقوم عليها حالة «التجمد الديني»، وهما مجرد قدمين من أقدام كثيرة يقوم عليها هذا التجمد الأخطبوطي العقيم. أليست هذه هي أركان ثقافتنا المعاصرة كلها الآن، وليست أركان الثقافة الدينية فقط؟ أو ليست هذه هي العوائق التي تغلق عنق الزجاجة التي لم نستطع الخروج منها على الرغم من المحاولات الفردية من بعض المفكرين ورجال الدين؟

7- اللاعقلانية ولعبة الموت: هل لا نزال نعيش في «زمن واحد» منذ مقتل عثمان؟

إن التاريخ الثقافي لهذه البقعة من العالم يحوي تناقضات وصراعات مصالح موروثة من عصور صراع المذاهب والفرق الدينية على السلطة والإمامة منذ لحظة مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والعالم في أغلبه دخل عصور الحداثة، بينما نحن لا نزال نعيش أجواء الماضي، لا نزال نعيش في «زمن واحد» منذ مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ و إلى الآن، ولم ندخل بعد «زمنًا جديدًا»!

وهذا الزمن الذي نعيشه هو زمن «الحروب الطائفية» التي يسكنها ويحركها العقل المغلق، ومن هنا تجدنا في دائرة مقيتة من التعصب الذي يولّد تعصبًا مضادًا في دائرة جهنمية لا تتوقف ولا تنقطع.

وهـذه الدائرة الجهنمية المغلقة تولـد الإرهاب بكل الجوانب اللاعقلانية فيـه، وبكل مـا ينطوي عليه مـن «تناقضـات باطنية» تحركه على مسـتوى الأفكار وعلى مسـتوى الواقـع. وحتى الآن وعلى الرغم مـن تجاوز «عوالم المـاضي» في النظام الاقتصادي وتكوين الطبقـات الاجتماعية، فإن المجتمع لم يحل بعد تناقضاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسـية؛ ولذا فإنه لا يزال ينجب حفّار قبره.

وحفـار قبره هو الإرهاب بـكل فيه من لاعقلانية وغبـاء وحمق. ويظل الإرهاب - على الرغم مما يبديه من قدرة على التدمير - عاجزًا وقاصرًا ومنهارًا، لأنه يدفع إلى فعل كل شيء ولا يتوانى عن أي شيء مهما كان لاأخلاقيًّا - من أجل انتصار قضية تسيطر على عقله المغلق.

والغريـب حقًّـا أن الإرهـاب يتوشـح بالدين، عـلى الرغم مـن أنه - أي الإرهاب - لا يحده سقف أخلاقي من أي نوع؛ ولا يميز بين ما هو «أخلاقي» و«غير أخلاقي» في الصراع؛ ومعه صار مبدأ ميكيافلي «الغاية تبرر الوسيلة» مبدأً مطلقًا لا يقف عند مستوى!

حيـث توجد حالة مـن العمى وعدم القدرة على التميـز؛ لأنه ينطلق من موقف شـديد التشنج والخطورة من شـأنه أن يؤدي إلى أعمال بالغة الشراسة ضـد الآخريـن، وإلى أعـمال انتحاريـة يـروح ضحيتها عـادة الإرهابيون أنفسهم!

إنهـا حالة من اللاعقلانية المطلقة يضحي فيها الإرهابي بكل شيء: وطنه وأرضـه وناسـه وعرضه؛ من أجل انتصـار قضيته! لا مانع عنده من تقسـيم بلـده، ولا مانع عنده من تشريد نسـائها وأطفالها وشـيوخها، ولا مانع عنده

مـن هدم المعبد على كل من فيه، لا شيء يهم سـوى انتصار «رؤيته للعالم» ووصوله إلى الحكم حتى لو في أرض منهدمة ووطن مقسم تستحي فيه النساء وتضيع فيه الأعراض، وتتحقق فيه أغراض الإمبريالية العالمية.

دائرة متكاملة من «اللاعقلانية» و«اللاأخلاقية» تحكم العمل الإرهابي؛ لأنـه لا يراعي أي عُرف، ولا توقفه أية حُرمة اجتماعية أو دينية، كما أنه لا يراعي أية قاعدة أخلاقية تشـكل عائقًا في سـبيله؛ إذ إنه يضع بتصرفه جميع الطرق والأسـاليب والوسـائل الممكنة دون أن يتراجع أمـام الصعاب مهما بلغت خطورتها لأنه يلعب «لعبة الموت» فقط، الموت من أجل حياة بعينها يريدها دون غيرها، حياة يكون فيها هو «السيد» وحده.

فكل ما هو «ممكن» عند الإرهابي، هو أيضًا «مسموح به» و«مباح»، والغاية تبرر الوسيلة، وكل ما هو «نافع وفعّال» فهو «ضروري» و« أخلاقي»! ولا يمكن التخلي عنه لأي سبب من الأسباب خارج مستلزمات مصالحه السياسية التي تهدف بالأساس إلى التغلب على عدو غير حقيقي في معركة مزيفة! فالمهم أن ينجح؛ لذلك لا يفرق بين «الديـني» و«اللاديني»، ولا يميز بين «الأخلاقي» و«غير الأخلاقي»، وبين «القانوني» و«غير القانوني»، وبين «الوسـائل الإنسـانية» و«الوسـائل غير الإنسـانية»، مهـما بلغت حدًّا قصيًّا مـن العنف اللاأخلاقـي واللاعقلاني. فهو لا يتوانى عن ضرب أي هدف يقع في مرمى يده، سـواء كان من الممتلكات العامة أو الخاصة، أو كان إنسـانًا عاديًّا أو أية شخصية تخالفه الرأي أو جنديًّا يؤدي الخدمة العسكرية، عندما يرى هو أن عقله المغلق يتحقق في هذا الفعل.

إن الإرهـابي إذ يحاول محو الاضطهـاد والشرور والظلم من وجهة نظره - يعمد إلى الإمعان في إثارة آلام وشرور أخرى أعمق وأشد.

فباسم أي حق وباسم أية أخلاق يتم تدمير وسائل وأسباب الحياة ويموت الأبرياء لمجرد أنهم يخالفون الإرهابي في الرأي؟ وباسم أية أخلاق لا يأمن الإنسان على نفسه وهو يشعر أنه مهدد بتصفيته جسديًّا من مخالفيه في التوجه أو العقيدة أو الأيديولوجية؟

في الواقع إن الإرهاب كسلاح في التعامل مع الخصوم هو سلاح بدائي يفقد قيمه وينقض أخلاقياته بسبب مبدأ عدم التمييز بين الأهداف والوسائل أو مبدأ الضربة العمياء.

إن محاولة التبرير الأخلاقي والعقلاني للإرهاب بالاستناد إلى الهدف - حتى لو كان نبيلًا ومشروعًا - يعني جعل «الأخلاق» مجرّد مجاملة للأمزجة والأهواء التي تسيطر على مجموعة بشرية أو طبقة أو حزب؛ ومِن ثَمَّ تفقد الأخلاق مضمونها وتتصدع قوانينها.

فبديهي إذن صعوبة، بل استحالة، فهم ظاهرة التعصب العقلي والإرهاب الدموي بالنسبة للأخلاق والمبنية على المبدأين الرئيسين: الخير والشر؛ إذ ليس بإمكان هذه الأخلاق أن تبرر التعصب والإرهاب، وإلا وقعت في التناقض والانتفاء والعبثية. فعلى مستوى الأخلاق تظل المسافة بين «العنف» و«الأخلاق» لا يمكن تجاوزها، كما لا يمكن ردم المسافة بين «الإرهاب» و«مقاصد الدين».

8- الكراهية وظاهرة العنف

يبدو أن الكراهية تراث إنساني عريق؛ وهي تتأجج وتظهر إلى الوجود لأسباب كثيرة، منها: الغيرة، وتباين الطباع، واختلاف الرأي، وتضارب

المصالـح، والنزاعـات العرقية، وتعـارض الأديـان، وصراع الأيديولوجيات السياسية، والاصطدام المهني.

وفي أحيـان أخرى تكون الكراهية بسـبب الاختلاف في «فهم الدين»، انظر إلى كراهية داعش لكل من تختلف معه، وكراهية الإخوان للسـلفيين، والسلفيين للصوفية، والشـيعة للسنة. انظر كيف يكره العلمانيون التيارات الدينيـة، وكيف تكره التيـارات الدينية التيارات المدنيـة، ثم كيف تتحول هذه الكراهية إلى طاقة مولدة للعنف رغبة في التعبير عن نفسها، حيث تدفع إلى المظاهرات غير السـلمية أو التفجير أو القتل أو الإيذاء البدني أو الإيذاء بالقول أو القطيعة أو الإقصاء.

وكل هذه الكراهية المؤججة للعنف بين المجموعات، بسـبب الاختلاف السـياسي الراجع إلى تباين المرجعية الديـن؛ والغريب أن هذا الخلاف ليس بسبب الصراع من أجل مصالح الناس أو من أجل تمكين الدين، و إنما بسبب الصراع من أجل التمكين السياسي وتحقيق مصالح التيار أو الجماعة ولو على حساب الوطن أو الدين.

والسـؤال: هل الكراهية هي التي تولد الخـلاف أم أن الخلاف هو الذي يولد الكراهية؟

في مـصر نجد الحالتين: مرة يبـدأ الأمر بالخلاف و ينتهـي إلى الكراهية، ومرة يبدأ بالكراهية و ينتهي إلى الخلاف، والنتيجة واحدة هي أن الكراهية هي التي تجمع وتوحد كل مجموعة ضد الأخرى، وكأن قول أنطون تشيخوف يصدق علينا: «الحب والصداقة والاحترام لا توحد الناس مثلما تفعل كراهية شيء ما». ومن هنا يمكن أن نفسر كل نزعات التدمير الموجودة عند جماعات

العنف سواء في مصر أو خارجها، وهنا يصدق تعريف أرسطو للكراهية بوصفها الرغبة في إبادة الكائن المكروه. لكن ما لا يدركه الكاره الذي يدمر المكروه أنه يدمر نفسه أيضًا، وهذا ما سجله ديفيد هيوم عندما اعتبر أن الكراهية شعور غالبًا ما يؤدي إلى تدمير الكاره والمكروه معًا.

فمتى تدرك جماعات العنف أن ميراث الكراهية الذي تحمله سوف يدمرها هي أيضًا؟!

إن نطاق الكراهية قد اتسع في عصرنا أكثر من أي وقت مضى، ومن ثَمَّ أصبح نطاق الصراع أكثر اتساعًا؛ ففي العصور الغابرة كانت الكراهية محدودة لأن الإنسان لم يكن يعرف إلا المحيطين به، وقلما يعرف شيئًا عن أحد سوى هؤلاء، أما الآن فنتيجة لثورة الاتصالات من إذاعة وتليفزيون وصحف صار الناس يعرفون الكثير بصورة ما عن طبقات وفئات عريضة من البشر ليس من أفرادها أحد من معارفهم المباشرين، وعن طريق السينما يخالون أنهم يعرفون كيف يعيش الأغنياء، وعن طريق الصحف يعرفون الكثير من شرور الأمم الأجنبية، وعن طريق الدعاية يعرفون الكثير عن الممارسات الشائنة التي ينغمس فيها كل من تختلف صبغة بشرتهم عنهم، فالبيض يكرهون السود، والمتدينون يكرهون غير المتدينين، وأهل التقليد يكرهون أهل الفكر، وهلم جرًّا.

وأغلب أشكال العنف تخرج من تلك الدائرة «دائرة الكراهية»، بل إن صراع الأديان ضد بعضه بعضًا غالبًا ما يكون نابعًا من الكراهية .. كراهية الديانة الأخرى لاختلافها عنها في القيم والعادات ورؤية العالم؛ وربما كراهيتها لأن أهلها مختلفون عنها في لون البشرة! ويكفي أن تستعرض

شائعات الغرب عن الإسلام أو العرب أو السود على سبيل المثال لكي ترى أنها لم تصدر إلا عن شعور بالكراهية غير المبررة منطقيًّا في كثير من الأحوال.

وفي مصر غالبًا ما ينجح الإعلام المناهض في إثارة مشاعر الكراهية؛ ربما لأن القلب المصري عند بعض الجماعات والطبقات الاجتماعية - على نحو ما تمت صياغته في الثلاثين سنة الأخيرة - أميل إلى الحقد والكراهية منه إلى المودة والصداقة، وهو ميال إلى الكراهية لأنه ساخط، ولأنه يشعر في أعماقه - وربما على نحو لاشعوري - أنه قد فاته معنى الحياة، وأن الآخرين ربما كانوا حاصلين على ما لم يحصل عليه من المتعة.

وفي بعض الأحيان يكون سبب الكراهية غير ظاهر عكس الأسباب السابقة، بل يكون كامنًا في النفس البشرية؛ حيث تجد بعض النفوس لا تأتلف فيما بينها، وتجد شخصًا ما لا يتقبل شخصًا آخر، بل يكرهه، لا لشيء ظاهر. وهذا النوع يفسر على أنه يرتد إلى سبب نفسي أو روحي؛ فالأرواح - وإن شئت النفوس - جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.

ومما تنتجه الكراهية أيضًا إصدار الشائعات وتناقلها، ومن الشائعات التي تعبر عن الكراهية تلك الشائعة التي انتشرت أثناء حملة الانتخابات الرئاسية سنة 1944م في الولايات المتحدة الأمريكية، عندما ذاعت شائعة على شكل أغنية من المفترض فيها أن المتحدث هو فرانكلين روزفلت (1882 - 1945م) موجهًا الحديث إلى زوجته، وكان روزفلت قد رشح نفسه لفترة رئاسية رابعة، تقول الأغنية الشائعة: «عليك أن تقبلي الزنوج، وعليّ أن أقبل اليهود؛ وبهذا نظل في البيت الأبيض حسبما نريد». فهذه الأغنية الشائعة

تعبر عن كراهية خصوم روزفلت له، فضلًا عن تعبيرها عن كراهيتهم لكل من الزنوج واليهود.

وفي مصر وبعض الدول العربية الآن لا تنتج الكراهية شائعات فقط، بل تنتج أيضًا اغتيالًا معنويًّا لكل ما هو جميل من تاريخنا وديننا!

9- قابيل وهابيل .. يعودان من جديد!

لا تزال قصة قابيل وهابيل التي تحكي الجريمة الأولى للإنسان حاضرة بظلالها، ولا يزال بعض المسلمين غير واعين بأنهم يعيدون كتابتها بأحرف من نار، لكن بتنويعات أخرى.

والقصة الأولى الحقيقية تولد قصصًا جديدة في السياسة والحياة الاجتماعية والاقتصادية وكل معارك الحق والباطل. «الثوابت» واحدة في كل القصص: غيرة الأخ من أخيه، الحسد الدافع للتدمير، الصراع على نوال الرضا الإلهي بطرق مشروعة وطرق غير مشروعة، عدم القبول بما قسمه الله، الرغبة في الاستحواذ والامتلاك أو التمكين، وعند الفشل الحل هو القتل: قتل الأخ لأخيه.

تقول القصة الأولى في القرآن الكريم: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ

يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِىۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: 27 - 31].

و إذا كانت "الثوابت" في القصة الأولى واحدة ومتكررة في القصص اللاحقة، فإن "المتغيرات" متعددة في كل قصة جديدة لكن التيمة الرئيسة مشتركة؛ فالقصة الأولى حسب بعض الروايات كانت حول الصراع على الزواج من الأخت الجميلة، بينما في القرآن كانت حول الصراع على تقبل القربان من الله، ثم تتكرر القصة بتنويعات مختلفة على اللحن ذاته: فيكون الصراع حول الميراث، وعند بعض الإخوة حول المكانة فيقتل الأخ أخاه سواء قتلًا ماديًّا أو معنويًّا أو يرميه في الجب (يوسف). **وتتكرر القصة في السياسة فبدلًا من الصراع حول خدمة الناس ونشر الأخلاق والقيم والنهوض بالوطن، يكون الصراع حول «السلطة والحكم»، وبدلًا من الصراع حول «الزواج من الجميلة» يكون الصراع حول «التمكين من السلطة»، تارةً امرأة وتارة السلطة .. ما الفرق؟**

ومرة يكون «البطل المساعد» على إخفاء نتيجة الجرم هو الغراب، ومرة أخرى تكون أبواق الدعاية والتضليل هي التي تقوم بنفس دور الغراب!

ما هذه الدماء التي تراق في العالم الإسلامي دونما غيره من العوالم؟

هل الإسلام هو دين الدم والقتل .. قتل المسلم وأهل الوطن؟

هل من الجهاد في شيء الانتحار الذاتي و إلقاء النفس إلى التهلكة؟ ألم يقل سبحانه: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: 195]؟! وألم يقل أيضًا: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: 29]؟! أي لا تقتلوا أنفسكم

ولا تدعـوا غيركم يقتلكم، أو كما قـال الواحدي: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾، أي لا يقتل بعضكم بعضًا. وقال الجصاص: «وليس يمتنع أن يكون جميع هذه المعـاني مـرادة بالآية لاحتمال اللفظ لها وجـواز اجتماعها من غير تضاد ولا تنافٍ...» (أحكام القرآن).

ألم يسمع هؤلاء وأولئك قول الرسول ﷺ: **«لَزَوال الدنيا أهون على الله عَزَّوَجَلَّ من قتل رجل مسلم»**.

لا أدري كيـف يفهـم القتلة قول الرسـول في حجة الـوداع للناس: **«أي اليوم هذا؟ قالوا: يوم الحج الأكبر. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكـم حرام كحرمـة يومكم هذا في بلدكـم هذا»**. وقـال ﷺ: **«لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يُصِبْ دمًا حرامًا»**.

لماذا يسارع البعض في إراقة الدماء أو التشجيع عليها، مع أن الرسول ﷺ يقول: **«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قلت: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول! قال: إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»**.

إن القرآن الخالد يعتبر هؤلاء مسرفين في الأرض، وهم مسرفون ليس فقط في الدماء: دماء أنفسـهم أو دماء خصومهم، بـل مسرفون في تفكيرهم القائم عـلى التكفير وادعـاء امتلاك الحقيقة المطلقة، وهـم مسرفون في البحث عن السلطة والسيادة، وهم مسرفون في الإقصاء والنبذ ورفض الآخر.

فالإسراف سمة لتفكيرهم وأفعالهم، رغم أن دينهم جاء بالبينات، لكنهم يؤولـون هذه البينات لتتفق مـع عقولهم ولتبرر أفعالهـم. ولذلك فإن القرآن الخالـد بعـد أن يَنهى عن قتل النفس، أية نفس، مسـتخدمًا أسـلوب التنكير

الذي يفيد العموم والشمول، يوسع دائرة الحكم عليهم، فهم ليسوا مسرفين في القتل فقط بل هم مسرفون في «الأرض» عمومًا، ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: 32].

وهذه إحدى مميزات القرآن الكبرى، يورد الحادثة الجزئية، لكنه يقدم منها درسًا يصلح لكل زمان ومكان؛ فالقصص في القرآن للعبرة لا مجرد الحكاية. ولذا جاءت الآية الأخيرة بعد قصة هابيل وقابيل.

إن قتل نفس واحدة مثل قتل الناس جميعًا؛ فالروح قبس إلهي تشترك فيه البشرية كلها، وهذا اعتداء على القبس الإلهي الذي وضعه في كل إنسان.

والغريب أن الإسلام يأتي حافظًا للنفس مدافعًا عن الحياة، بينما بعض أتباعه يقتلون النفس ويهدرون الحياة. يأتي الإسلام داعيًا للوحدة، لكن المتأسلمين يسلكون كل الدروب لشق صف المسلمين، يحذر الإسلام من الفتنة فيخرج بعض الشيوخ معتبرين الفتنة هي الطريق لسيادة الدين. ويدعو بعض المتمشيخين إلى الشهادة بينما يهربون بأنفسهم طالبين النجاة! ويشجعون العمليات الانتحارية، ولم يمت أحد منهم إلى الآن!

10- إعادة تصدير الإرهاب

إن المسلمين الأحرار الأوائل لم يعرفوا هجمات الإرهاب والغدر في مجتمعهم الأول في مكة، وعلى الرغم من كل ألوان الظلم والاضطهاد التي كانوا يتعرضون لها، لم يقم أحد منهم بهجمة إرهابية واحدة ضد المجتمع

الـذي يعيش فيه، ولم يخوضـوا حربًا إلا بجيش منظـم عندما أصبحت لهم دولـة في المدينة المنورة، وأصبحت الجيوش تحـارب الجيوش، ولم ترِ كتب السـيرة أن النبـي ﷺ حارب أية طائفة من المسـلمين، وأبـو بكر ما خاض حـروب الردة بمجموعات إرهابية ضـد جيش دولته، و إنما بجيش منظم ضد الخارجين على الدولة ونظامها العام، من أجل تماسك الدولة لا من أجل زعزعة الدولة. فالإرهابي يخدع نفسه لو ظن أنه بعمله ضد النظام العام للدولة يسير على درب خاتم الأنبياء، ويخدع نفسـه أيضًا لو اعتقد أنه يشـبه أبا بكر من قريب أو بعيد، حاشـاك يا من أرسـلك الله رحمة للعالمين، وحاشـاك يا أول الخلفاء الراشدين.

إن الإسـلام الحر لا يعرف الإرهاب الذي نشـأ مع الخوارج ذوي العقول المغلقـة التي توهمهم أنهم يقضون على الشرور في العالم؛ بينما هم يزيدونها؛ فالإرهـابي إذ يحاول محـو الاضطهاد والظلم - يعمـد إلى الإمعان في إثارة آلام وشرور أخـرى أعمق وأشـد، إنه لا يراعي أي عُـرف وأية حُرمة اجتماعية أو وطنيـة، كما لا يراعي أية قاعدة أخلاقية سـوى مـا يتوهم أنه الخير! ولا تشـكل حرمـة الحياة الإنسـانية عائقًا في سـبيله؛ إذ إنه يضـع بتصرفه جميع الطرق والأسـاليب والوسـائل الممكنة دون أن يتراجع أمـام الصعاب مهما بلغت خطورتها؛ لأنه يلعب لعبة الموت فقط.

والإرهـاب بشـكله التقليدي في العقـود الأخيرة، هو إرهـاب غبي؛ لأن خسـائره أكثر من مكاسـبه؛ ولأنه إرهاب خارج قواعد الحرب لا يلتزم بأية أخـلاق في المواجهـة، مثلـه في هذا مثل إرهاب المسـتعمرين ضد الشـعوب المحتلة، الفرق بينهم فقط أن الإرهاب الأول يرفع شعار الدين، والآخر يرفع

شعار القانون الدولي وتعمير البلدان المتخلفة (لاحظ المعنى اللغوي لكلمة استعمار).

أما الإرهاب اليوم فهو مركب الغباء؛ لأنه يترك الشر الحقيقي، ويحارب أهله ووطنه وجيرانه وجيش وطنه في معركة لن تنتهي إلا بخسارته هو حتى لو فاز فيها؛ لأن فوزه يعني ضياع الوطن في سلسلة لا تنتهي من الحروب الأهلية؛ سيكون المنتصر الحقيقي فيها هم الأعداء التاريخيون للأمة العربية والإسلامية. وهؤلاء ينعمون الآن بأروع لحظات السلام؛ فهم لا يخوضون الحروب بأنفسهم، بل بالوكالة؛ فعدوهم يحارب عدوهم، الإرهاب يحارب المسلمين.

وهذا هو أذكى سيناريو، حيث أعاد المستعمرون تصدير الإرهاب إلى الشرق، وداوني بالتي كانت هي الداء. الداء هو الإرهاب الذي يعاني منه المستعمر الأجنبي؛ إذن نعيد تصدير الإرهاب، فلا نقضي على الإرهاب الآتي من أفغانستان، بل نعيد تصديره، ولتكن ميناء الوصول هي سيناء لضرب مصر؛ المحطة الأخيرة.

فقد تمت صناعة الإرهاب المنظم في أفغانتسان. وفي البداية كانت ظروف إنشائه لا علاقة لها بالإرهاب، بل كان جهادًا من أجل تحرير أفغانستان من الغزو السوفيتي الأجنبي، ثم بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، خرج الوليد عن السيطرة، وتحول إلى هدف دولي جديد. وهنا تمت تسميته بالإرهاب، لأنه استهدف المدنيين، وكان لا يميز في ضرباته بين المشروع واللامشروع، والغاية عنده تبرر الوسيلة، مهما كانت بشاعتها أو مخالفتها لأخلاق الحروب؛ إذ كان يتبع مبدأ الضربة العمياء.

ثم انتقلت القوى العالمية النافذة إلى مرحلة جديدة من الذكاء الإستراتيجي لتوظيف الإرهاب لتحقيق إستراتيجيتها في الشرق الأوسط بفكر جديد وسيناريو واضح إلا للأغبياء غباءً مركبًا؛ فبعد أن فشلت في القضاء على الإرهاب، وإن كانت حققت مكاسب أخرى كثيرة منه، وبدلًا من أن تواصل محاربته، صنعت الظروف - أو استغلتها - لإعادة تصدير الإرهاب، وفتحت له ملاذًا آمنًا في سيناء بعد الثورة المصرية، مستغلة انشغال المصريين بالصراع على السلطة، ومستغلة مطامح بعضهم للتحالف معها للوصول إلى السلطة والتمكين منها حتى لو كان الثمن هو مصر. وهذا الإرهاب المعاد تصديره بدلًا من أن يحارب المحتل الأجنبي أو قواعد الاستعمار، أو يعيد تكييف نفسه من أجل إعادة بناء بلده، يقوم بتصويب سلاحه نحو أبناء وطنه! ولتنعم قوى الاحتلال الأجنبي في العالم بلحظات سلام لم تشهدها من قبل!

لكن هذه المرة لا يدرك الإرهاب أنه يُنجب حفّار قبره؛ لأنه إذا كان نجح في البقاء رغم خسائره وخسائر أمته في العقود الأخيرة؛ فسبب هذا البقاء أنه كان يحارب عدوًّا خارجيًّا، أما الآن فإنه يحارب بني جلدته الذين سيضيقون عليه الخناق يومًا بعد يوم، وهو نفسه سيقضي على نفسه بما يحوي من تناقضات وصراعات وتخبط، وسينتهي إما إلى جدران السجون أو منصات الانتحار الذاتي، مثله مثل المريض السيكوباتي .. شخص مضاد للمجتمع ويتلذذ بإلحاق الأذى بمن حوله، وينتهي به الأمر إما في مصحة نفسية أو يسقط من أعلى حافة الجبل عندما لا يجد مَنفذًا ينجو منه.

ويظل الإرهاب عاجزًا وقاصرًا ومنهارًا؛ لأنه يدفع إلى فعل كل شيء ولا يتوانى عن أي شيء - مهما كان لاأخلاقيًّا - من أجل انتصار قضيته، يظل هذا

العنصر قاصرًا لأنه ينطلق من موقف شديد التشنج والخطورة من شأنه أن يؤدي إلى أعمال شرسة ومدمرة ضد المجتمع، و إلى أعمال انتحارية يروح ضحيتها عادة الإرهابيون أنفسهم!

أيتها الحرية، كم من الجرائم تُرتكب باسمك! وأيها الحق في الدين، كم من الغدر الأسود والمصالح الأنانية تتحقق باستغلال أسمى معانيك!

لكن لا تحزني أيتها الحرية؛ فأنت الأمانة التي حملها الإنسان من رب العالمين، من أجل الحياة لا من أجل الموت، وأنت مقصد الرسول، وأساس الرسالة. ولا تأسى أيها الحق فإن السرْج المُذهَّب لا يَجعلُ الحمار حصانًا! حتى لو استغلك المتنطعون .. فمصيرهم معروف في البخاري ومسلم: «هلك المتنطعون .. هلك المتنطعون .. هلك المتنطعون» صدقت أستاذي وأستاذ البشرية.